المعروف الممزق

١٣/ ٧/ ١٤٣٨هـ

جاء محتاجٌ إلى أحد الأصدقاء يَعْرِضُ عليه الشـفاعة في تفريج كربته؛ فبكى صديقي! فتعجب صاحبُ الحاجة من بكائه! واعتذر إن كان سبّب له حرَجًا، فقال: بل أبكي فرحًا بفضل الله تعالى أن اختارني من بين الناس لأكون موضعًا لقضاء حاجتك!

يا لهذه النفوس الكبيرة! التي قلبت إحسانها، فجعلت الطالبَ مُحسنًا!

ولسـتُ أكتم القارئ سرًّا إن قلتُ: إنني أتنفس الفخر، وأشم أريج المروءة؛ كلما تذكرتُ هذا الموقف، وفي المقابل أشـعر بالأسـى والحزن العميق؛ كلما سـمعتُ شخصًا -ممن منّ الله عليه بقضاء حوائج الناس- يمزّق معروفه، ويبدِّد حسـنات الإحسـان بالحديثِ عنها في المجالس، وعمّن أحسن إليهم، ومَنْ الذي قابل معروفه والذي تنكّر له! وأسوأ من هذا: أن يواجِه من أحسن إليهم بمثل هذا!

إن من كمال عقل الإنسان، وتمام مروءته: أن يستقل كثيرَ المعروف من نفسـه، وأن يستكثر قليل المعروف من غيره، وأن يكمّل معروفه بإخفائه

وتعجيلـه، كما قيـل: إذا اصطنعت المعروف فاسـتره، وإذا صنع إليك فانشره، ولسان الحال يقول:

خِلٌّ إذا جئتَـه يومًـا لتســـأله

أعطاكَ ما ملكتْ كفـاه واعتذرا

يخفي صنـائعَه، واللهُ يظهـرُهـا

إنَّ الجميـلَ إذا أخفـيتَـه ظهـرا

ولا أدري هل يشـعر المانُّ بمعروفه، والمتحدّثُ به أنه أتعب نفسَـه بلا جدوى، وأذهب أجرَه، وأوصد البابَ على نفسـه؟ فإن الناس متى علموا أنه من أهل المنّ تجنّبوه! فمَنْ مَنَّ بمعروفه أسقط شكره.

ويذكر أن ابن سيرين سمع رجلًا يقول لرجل: فعلت إليك، وفعلت! فقال له: اسكت، فلا خير في المعروف إذا أُحصِي![1].

ولا دواء لهذا الداء إلا أن يستشـعر -مَـنْ أكرمه الله بنفع الخلق- أن المنّة أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا لله وحده، فالله هو المانّ عليه، إذْ استعمله في الإحسان، والمنة لله على ذلك الشخص أن سخّر له من ينفعه في دينه أو دنياه، وأن يتذكر أيضًا أن هذا عمل صالح لا يقبله الله إذا لم يكن خالصًا، فلا يطلب ممن أحسـن إليه جزاءً ولا شكورًا، كما قال الأبرارُ -جعلنا الله منهم-: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

«ومن الناس مَنْ يحسـنُ إلى غـيره ليمن عليه، أو يرد الإحسـان له بطاعتـه إليه وتعظيمه أو نفـع آخر، وقد يمنّ عليـه، فيقول: أنا فعلت بك كذا، فهذا لم يعبد الله، ولم يسـتعنه، ولا عمل لله، ولا عمل بالله، فهو

(١) أدب الدنيا والدين (ص٢٠٤).

المرائـــي! وقد أبطل الله صدقة المنّان وصدقة المرائي، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٦٤-٢٦٥][1]، «ولهذا كان المحققون للإخلاص لا يطلبون من الـــمُحْسَنِ إليه لا دعاءً ولا ثناءً ولا غير ذلك، فإنه إرادةُ جزاءٍ منه؛ فإنّ الدعاءَ نوعٌ من الجزاء على الإحســـان والإســـاءة؛ كما جاء في الحديث: «**من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه؛ فادعـــوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه**»[2]؛ ذلك ليبقى أجرهم على الله تعالى، ولا يكونوا قد اعتاضوا منه، كما كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا أرسلت إلى قوم بهدية تقول للمرسل: اسمع ما يدعون به لنا، حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا، ويبقى أجرنا على الله تعالى»[3].

اللهم، آتِ نفوســـنا تقواها، وزكها أنت خـــير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٢٩-٣٣١).

(٢) رواه أبوداود (رقم١٦٧٢)، وابن حبان (رقم٣٤٠٨)، والحاكم (رقم٢٣٦٩)، والعراقي في المغني (ص٢٦٤).

(٣) بيان التلبيس (١/ ٥٢٧).